

المحاضرة الرابعة

أثر المعتزلة في النقد الأدبي

الأستاذان: - داود امحمد

- زروقي عبد القادر

المذهب الاعتزالي :

ظهر المذهب الاعتزالي في مدينة البصرة في العهد الأمويّ، فقد كان مسجدها جامعة إسلامية يتخرّج فيها طلاب الفقه والنظر في العقائد وعلوم اللغة والأدب والشعر وسائر أبواب المعرفة المتّاحة في ذلك العصر. وكان في ذلك المسجد الإمام الحسن البصري، وكان مجلسه يستقطب طلاب العلم

وكان من طلبته واصل بن عطاء، وبدأ الخلاف عندما سُئل الحسن البصري عن مُرتكب الكبيرة هل هو مؤمن أو كافر؟ فأجاب أنه مؤمن عاصٍ. فاعترض عليه واصل بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلة بين منزلتين، أي بين الكفر والإيمان، وأنه ليس مؤمن ولا عاصٍ. ثم اعتزل مجلس الحسن البصري. فقال الحسن: "لقد اعتزلنا واصل" فسُيّي هو وأتباعه بالمُعْتَزِلَة، أما المُعْتَزِلَة فقد سمّوا أنفسهم "أصحاب العدل والتوحيد".

واتّخذ واصل بن عطاء لنفسه مجلساً مستقلاً في المسجد أخذ يدرّس فيه منهجه الفكري القائم أساساً على تقديم العقل على النقل في المسائل الدينية، فيما كان رأي الحسن والجمهور تقديم النقل على العقل. وهكذا كانت بداية أول مدرسة عقلانية إسلامية.

أعلام المعتزلة في النقد والبلاغة والأدب: على كثرتهم عبر العصور سنقف عند ثلاثة منهم ممن كانت لهم بصمات في النقد وهم:

بشر بن المعتمر (ت:210هـ): جاء في سير أعلام النبلاء: بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ الْعَلَامَةُ أَبُو سَهْلٍ الْكُوفِيُّ ثُمَّ الْبَغْدَادِيُّ شَيْخُ الْمُعْتَزِلَةِ وَصَاحِبُ التَّصَانِيفِ. كَانَ ... أَخْبَارِيًّا شَاعِرًا مُتَكَلِّمًا كَانُوا يُفَضِّلُونَهُ عَلَى أَبَانَ اللَّاحِقِيِّ، وَلَهُ قَصِيدَةٌ طَوِيلَةٌ فِي مُجَلَّدٍ تَامَ فِيهَا أَلْوَانٌ. وَكَانَ ... ذَكِيًّا فَطِنًا ... وَلَهُ كِتَابٌ تَأْوِيلُ الْمُتَشَابِهِ وَكِتَابُ الرَّدِّ عَلَى الْجُهَالِ، وَكِتَابُ الْعَدْلِ وَأَشْيَاءَ لَمْ نَرَهَا. مات سنة عشر ومائتين.

الجاحظ (ت:255هـ): عمرو بن بحر، أبو عثمان كان من أهل البصرة، ، وقدم بغداد، فأقام بها مدة. كان عالماً بالأدب فصيحاً بليغاً، مصنفاً في فنون العلوم، وكان من أئمة المعتزلة، تلميذ أبي إسحاق النظام. وإنما قيل له " الجاحظ " لأن عينيه كانتا جاحظتين، والجحوظ: النتو، ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب " الحيوان " فلقد جمع كل غريبة، وكذلك كتاب " البيان والتبيين " وهي كثيرة جداً وكانت وفاة الجاحظ في المحرم سنة خمس وخمسين ومائتين بالبصرة، وقد نيف على تسعين سنة

الناشئ الأكبر (ت:290هـ): هو عبد الله بن محمد. أبو العباس النّاشئ المتكلم الشّاعر المشهور. أصله من الأنبار، وسكن مصر. معدود في طبقة البُحْثَرِيِّ، وابن الرُّومِيّ في الشعر، وله قصيدة طويلة ألفها نحو من أربعة آلاف بيت، فيها فنون من العلم. وكان بصيراً بالعربية قيماً بعلم العروض، كثير التّصانيف. توفي بمصر سنة ثلاثٍ وتسعين، وكان من كبار المعتزلة¹.

إشارات نقدية في صحيفة بشر بن المعتمر:

يقول ابن رشيق: " ومما لا يسع تركه في هذا الموضع صحيفة كتبها بشر بن المعتمر، ذكر فيها البلاغة، ودل على مظان الكلام والفصاحة، يقول فيها:

"خذ من نفسك ساعة فراغك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حساً، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع.

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمجاهدة، وبالتكلف والمعاندة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً كما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه.

وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك.

1. --- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، 966/6

--- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، ط4، 1983، دار الثقافة، بيروت - لبنان ص 17

ومن أراغ (أراد) معنى كريماً فليلتبس له لفظاً كريماً؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما يعود من أجله أسوأ حالاً منك من قبل أن تلتبس إظهارهما، وترهن نفسك في ملابستهما وقضاء حقهما.

وكن في إحدى ثلاث منازل: فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقياً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً؛ إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما للعامة إن كنت للعامة أردت.

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة، ومع موافقة الحال، ومع ما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي.

فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك في نفسك على أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء؛ فأنت البليغ التام.

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك في أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها؛ فلا تكرهها على اغتصاب مكانها، والنزول في غير أوطانها؛ فإنك إذا لم تتعاطى قرض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور لم يعبك بترك ذلك أحد؛ فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً، ولا محكماً لشأنك، بصيراً بما عليك ولك؛ عابك من أنت أقل منه عيباً، ورأى من هو دونك أنه فوقك.

فإن أنت ابتليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع؛ فلا تعجل، ولا تضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعأوده عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة، أو جريت في الصناعة على عرق.

فإن تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل، ومن غير طول إهمال؛ فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفها عليك؛ فإنك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب، والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في صفات، وإلا أن

النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع الشهوة والمحبة".²

تحدد الصحيفة:

+ أوقاتا يسمح فيها القول وتجود القريحة

+ الدعوة إلى البعد عن التوعر والتعقيد في الألفاظ والمعاني

+ مشاكلة اللفظ للمعنى

+ تحدث عن شروط القافية الجيدة وهي التي تستقر في مكانها غير نافرة ولا قلقة

+ تقسيم الناس من حيث القدرات والمواهب إلى ثلاث مراتب:

1 الأديب الحاذق المطبوع

2 الأديب المتوسط وهو الذي لا يملك الطبع الفياض وليست له قدرة كاملة (يوصيه بالتأني

والتروي)

3 من تنعدم عنده القابلية للأدب والأجدر به أن يدع هذه الصناعة

هذه الصحيفة نجد فيها حديثا مبكرا عن كثير من عناصر العمل الفني ومن ذلك:

❖ -الألفاظ والمعاني والصلة بينها وشروط الجودة والحسن في كل منهما

❖ -نجد عنده القاعدة التي ستصبح الأصل في تعريف البلاغة عند المتأخرين (مراعاة

مقتضى الحال ولكل مقام مقال)

❖ تحدث عن القافية وشروط الجودة فيها

❖ تحدث عن الموهبة الأدبية وتفاوت حظوظ الناس فيها وإيمانه بالاختصاص

❖ ربط الأدب بالحالة النفسية (الوجدان والعواطف) أوقات معينة يكون فيها الوحي

والإلهام

❖ المقاييس التي أوردتها تصلح للشعر والخطابة معا كما يرى ذلك إحسان عباس

يرى أحمد أمين أنه يمكن القول إن بشرا هو مؤسس البلاغة العربية لأننا لا نعلم من تعرض

لهذه الأسس قبله

2. العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني، تح: النبوي محمد شعلان/1-341-342-343-344.

هذه الصحيفة من أبرز وأهم المصادر التاريخية

المعتزلة والنقد: يقول إحسان عباس: ... إن النقد الأدبي ولد في حضن الاعتزال (الجاحظ - بشر بن المعتمر - الناشئ الأكبر) والمتأثرين به، سواء أكان ذلك التأثير موجباً أو سالبياً (ابن قتيبة، ابن المعتز) ، وكان الاعتزال حينئذ يعني في أساسه الاحتكام إلى العقل، والعقل يهدئ من جموح العاطفة والعصبية، ولهذا قضى بأن الزمن لا يصلح أن يكون حكماً على الشعر، مما أدى منذ البداية إلى أن يسلك النقد طريقاً وسطاً لا تفضيل فيها لقديم على محدث أو العكس، وإنما هنالك كما يقول العقل الاعتزالي: محض الحسن والقبح، وذلك هو أساس النقد الأدبي؛ والعقل هو المرجع الأخير في التدوق، ولهذا كان الصدق في الشعر أصح لأنه مقبول لدى العقل، 10/1، ثم كان الاعتزال يعني رداً على الثنوية³ دفاعاً عن الدين. ومن ضمن ذلك الرد على الثقافة التي تبث الأفكار الثنوية بدعوة مضادة هي العودة إلى ينبوع الثقافة العربية، ومصدر المعرفة العربية، وذلك هو الشعر؛ كذلك فإن الاعتزال يعتمد على الجدل من أجل الإقناع، ولهذا لم يجد ضيراً في أن يجعل الشعر إحدى وسائل الإقناع أي أن يتحول إلى شكل خطابي وأن تقترب المسافة بينه وبين النثر؛ وكانت بعض نماذج الشعر القديم تسعف على هذا التصور، وفي مثل هذا الجو نسمع الثناء على قصيدة عبيد بن الأبرص بأنها أحرى أن تسمى "خطبة بليغة".

وبالنظر إلى هذه النشأة المرتبطة بالاعتزال يخلص إحسان عباس إلى وجود سيئات علقت بالنقد الأدبي حيث:

- أصبح النقد والشعر كلاهما نشاطين عقليين.
- تحولت مهمة الشعر مدة طويلة إلى تقديم المعرفة.
- أخذ النقاد يقفون وقفات طويلة عند البحث عن المعاني. مما انجر عنه:
- البحث في قضية أخذ المعاني، وطغيان مشكلة السرقات الشعرية على سائر المشكلات.
- كاد يمحي الفاصل بين الشعر والخطابة في نظر النقاد، ووضعت مقاييس عامة تصلح للشعر مثلما تصلح للخطابة.

3- (الثنوية هي ديانة سُبي أصحاب هذه التسمية لأنهم قالوا بالهين اثنين: النور والظلمة، أو الخير والشر، ويشكل القول بالثنائية أساس ديانتهم والأصل الأول لعقائدهم، وقد عايشهم علماء المسلمين واقعياً ورأوهم عن كتب واحتكوا بهم وناقشوهم وخبروا عقائدهم وطقوسهم وعباداتهم).

وهذا ما أدى إلى ردة فعل جاءت في صور ثلاث:

- ✓ الانحياز إلى جانب اللفظ.
- ✓ والتعلق بالصورة الشعرية.
- ✓ الهرب من الأثر الفلسفي للتمييز بين الشعر والخطابة وللوقوف عند مشكلة العلاقة بين الشعر والصدق أو الشعر والكذب.